ملاحظات فی الحضارة المقارنة

پدیدآورنده (ها) : عمادالدین خلیل

فلسفه و کلام :: نشریه الوعی الاسلامی :: السنة التاسعة، محرم ۱۳۹۳ - العدد ۹۷

صفحات : از ۶۵ تا ۶۹

آدرس ثابت : https://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/768497

تاریخ دانلود : ۱۴۰۲/۰۲/۱۳

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسـلامی (نور) جهت ارائـهٔ مجلات عرضه شـده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشـد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسـلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صـفحه قوانین و مقررات اسـتفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

د. عماد الدين خليل

ان سؤالا ملحا يفرض نفسه فرضا في مجال الحديث عن (الحضارة) وعوامل تدهورها وستوطها ، ذلك هو أن المبادىء الوضعية العلمانية ، بشتى أصنافها ، استطاعت أن تنشىء حضارات مزدهرة مطبوعة بطابعها ، تماما كما استطاع الاسلام أن ينشىء حضارته ذات الطابع الخاص .. وان تلك العلمانيات تمكنت من بعث (الحافز) على الانجاز الحضارى فى نفوس أبنائها ، تماما كما بعث الاسلام هذا الحافز على الخلق والابتكار والانجاز فى نفوس اتباعه .. ثم — وهذا هو الأهم — أن كل تلك الحضارات علمانية واسلامية تعرضت لذات المصير المحتوم الذى يسوق الدول والحضارات الى نهاياتها « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فما هى الفروق الجوهرية — اذن — بين تلك الحضارات ، كحركات تنبثق عن مبادىء لم تتوغل الى البعد الثالث للانسان والعالم ، وبين حضارة تنبثق عن عقيدة تعرف

www.noormags.ir

كيف تحيط علما بذلك البعد الثالث ؟

صحيح ان الاسلام يشبه كل المبادىء الوضعية فى عملية خلق الحافز والدافع لأن يعبر عن كل طاقاته وينفذها فى عالم الواقع ، الا ان ميزة الاسلام انه يسعى الى ان تتم عملية التعبير هذه بأكبر قدر من الأمانة والمسؤولية والاخلاص وحيوية الضمير ، استنادا الى عاملى (التقوى) و (الاحسان) اللذين يقفان كحارسين ودافعين — فى الوقت نفسه — الى الأداء الامين المخلص المسؤول .. واذا كانت المبادىء الوضعية تبعث هذا الحافز الحضارى عن طريق وضع اهداف دنيوية فردية او جماعية ، قومية او عالمية ، تعود بالخير والانتاج على الفرد والجماعة والأمة فى نهاية المطاف ، فان الاسلام بدوره يثير هذا الحافز بوضع اهداف ذات طابع جزائى ، فردى وجماعى ايضا « النصر الذى يقود الى الاستعلاء العادل فى الارض ، او الشهادة التى تقود الى الجنة .. وبين النصر والشهادة لا يغبن الانسان المسلم مثقال ذرة من عمل ينجزه مستهدفا من ورائه تطوير الحياة واغناء الحضارة بما يعزز مكانة الاسلام فى الارض » .. وواقعية الاسلام تتبدى فى تقريره اهمية الهدف الجزائى ، المادى والمعنوى على السواء ، فى اثارة الحوافز للانتاج الحضارى بتقوى عميقة واحسان طموح ، اى بأكبر قدر من الرقابة الذاتية والاتقان فى الاداء ..

ان الاهداف فى المبادىء الوضعية تقتصر على النطاق النفعى العملى المنغلق على الانسان الفرد ، او الطبقة الحاكمة ، او الحزب المتنفذ ، او القومية ، او الأمة .. الى آخره .. اما فى الاسلام فان الاهداف تتجاوز نطاق النفعية المباشرة والعملية الملموسة ، وتكسر جدران العزلة الانانية المنغلقة على القبيلة او الفئة الحاكمة ، او الجماعة الدينية ، او الأمة ، منفتحة على الانسان فى العالم كله ، انى كان ، والى اية فئة او جماعة او دين او امة كان انتماؤه ..

فاذا ما تجاوزنا الفروق الجوهرية بين الاهداف التى تضعها الحضارات العلمانية لتحريك الانسان ، وتلك التى يضعها الاسلام ، لوجدنا انفسنا امام (فرق) او (ميزة) اخرى اكثر تأثيرا وعمقا ، تلك هى « كيفية التعامل مع المنجزات الحضارية » ؟

هل تستطيع المبادىء العلمانية ان تحدث وئاما بين الانجاز الحضارى وبين الانسان .. ؟ هل تستطيع ان تكيف هذه المنجزات من اجل تغطية عادلة وصحيحة لحاجات الانسان فردا وجماعة .. ؟ هل يتم (التعامل) وفق اهداف اكبر من النفعية والاثرة « الفردية او الطبقية او الحزبية ، او المذهبية ، او القومية » .. ؟ هل يحقق هذا (التعامل) سيرا الى الامام صوب تعزيز مسؤول لخلافة الانسان فى الأرض ، ولمكانته كسيد للعالمين .. ؟ هل ينتج عن هذا (التعامل) المزيد من الضمانات التى تكفل للحضارة رقيا وتطورا وعدم ارتداد الى الوراء ، وتوازنا فى المعطيات : المادية والروحية ، العقلية والعاطفية ، الطبيعية والغيبية ، الحسية والخيالية .. الى آخره ؟ والتزاما فى (شكل) المعطيات وفى (مضمونها) بما ينسجم مع مهمة الانسان فى الارض .. ؟

ان الحضارة الاسلامية ترد علينا بالايجاب على كل هذه الاسئلة التى

www.noormags.ir

يمكن ان تطرح فى هذا المجال ، وغيرها كثير .. اما الحضارات العلمانية فان واقعها التاريخى يشهد بوضوح جازم كيف انها نكلت عن كل هذه المتطلبات وكيف انها انحرفت بمسؤولياتها الصعبة عن الجادة المستقيمة .. وها هى الحضارة المعاصرة التى نعيشها جميعا تقدم من الأدلة ما فيه الكفاية ..

ان الحضارة الاسلامية قدمت للعالم — على سبيل المثال — رياضيين كالخوارزمى والبيرونى .. وغيرهما، والحضارة الغربية قدمت للعالم بدورها رياضيين كبار كنيوتن وريمان وآينشتاين وغيرهم ، لكن معطيات الأولين وضعتها حضارتنا فى خدمة (الانسان) ، اما معطيات الآخرين فقد وجهت صوب صنع وانجاز ادوات لقتل الانسان ..

هذا الى ان حياة (العلماء) الشخصية ليست سواء هنا وهناك .. ففى الحضارات العلمانية يعانى المفكر ، والمثقف بصفة عامة ، الكثير من التمزق والتشتت وعدم التوحد الذاتى والانسجام مع الخارج : جماعة وامة وعالما ، ولا يجد التوازن الفعال بين قدراته العقلية الفذة وخوائه الروحى المجدب .. اما فى الحضارة الاسلامية فان حياة العلماء الشخصية كانت تتميز بالتوازن والتوحد والانسجام .. ولهذه التجربة الذاتية (الخاصة) اثرها الكبير الحاسم على طبيعة المنجزات الحضارية نوعا وكمّاً ، ولا يبدو هذا الاثر الا على مدى الزمن الطويل ..

وميزات كثيرة اخرى تميز الحضارة الاسلامية عن سائر الحضارات .. ان « التجربة الاسلامية السياسية » اقل التجارب تعرضها لحالات الغش والمروق والخيانة ، تلك التى تمثل انحرافات خطيرة عن سير المبدأ او العقيدة صانعة الحضارة .. فلو قمنا بدراسة (احصائية) لحالات (الازدواج) بين النظرية والتطبيق ، او بين الفكر والتنفيذ ، والقول والعمل ، بين المبادىء فى اطرها المكتوبة وبين الشخوص التى تتجسد فى حركتها وسلوكها هذه المبادىء ، لرأينا تجربتنا تقدم اقل الحالات الازدواجية عددا .. بينما نجد فى تجارب وضعية ازدواجا خطيرا بين الفكرة والتنفيذ ..

ان تضاؤل الحالات الازدواجية فى التجربة الاسلامية ينبثق ولا شك عن مقدار الحيوية والرقابة الدائمة التى يولدها الايمان فى ضمير الانسان ، ومدى المسؤولية التى يحملها الاسلام عنق الانسان دون اكراه او قسر او ارغام .. وما (التقوى) و (الاحسان) — كما رأينا — الا وصول الى المرحلة التى يحس فيها الانسان المسلم انه يعطى كل جزئية فى حياته لله ، وعلى عين الله التى لا تنام لحظة .. وهذا الوازع الضميرى ، وهذا الشعور بالمسؤولية له تأثيره الكبير على العطاء الحضارى كمّاً ونوعا ، وعلى طبيعة التعامل مع هذا العطاء .

هذا فضلا عن ان التجارب المبدأية (الايدولوجية) او السياسية التى تتعرض لازدواجيات وخيانات اقل ، يطول عمرها الزمنى اكثر ، وبالتالى يتاح لها ان تقدم انجازات حضارية اعمق واشمل واكثر تماسكا واستمرارا وتعبيرا عن روح الجماعة واهدافها .. اما التجارب التى تمارس فيها الخيانات على نطاق واسع فانها سرعان ما تحدث تمزقا وتفتتا فى المجالين الجماعى والفردى،

www.noormags.ir

الامر الذى يؤدى الى الاسراع بسقوط التجربة : دولة وحضارة وانسانا . ذلك أن الخيانة ستولد فى مجال الجماعة حركات مضادة تسعى لسحق القائمين على التجربة ، وقد يؤدى الامر الى انهاك قوى الطرفين فى مجال العنف السياسى والعسكرى فلا تقوم للأمة قائمة بعد ذلك . وأما على النطاق الفردى فان تكرر الخيانات سيحيط الضمير بطبقة من التراب واللامسؤولية ، وسيقلص بالتالى (كمية) المنجزات الحضارية ويؤثر على (نوعيتها) مما يؤدى بدوره الى انهاك القوى التى تستند عليها التجربة ، الامر الذى يعجل بتدهورها وسقوطها ..

نجىء بعد ذلك الى ميزة اخرى اكثر أهمية .. فى التجارب الوضعية يسقط الانسان نفسه ، هذا الكائن المتفرد ، والفعال ، بمجرد سقوط دولته وحضارته ، وتكون النكسة بالتالى أعمق وأشد خطرا .. أما فى الاسلام فجائز أن تسقط الدولة أو الحضارة ولكن الانسان المسلم والمجتمع المسلم يستمران على المقاومة والتماسك أطول فترة ممكنة، بسبب توفر الحوافز الذاتية والقيم الخلقية التى يولدها الدين والضمير الدينى ، مما لا نجده فى التجارب العلمانية ، فها هنا تكاد تكون القضية طردية : كلما إزدادت الحضارة والدولة تدهورا وانهيارا ، كلما ازداد الانسان (المواطن) تفسخا وتحللا وغيابا .. أما فى الاسلام فان الانسان والمجتمع يظلان يحتفظان بنوع من التماسك الداخلى، وربما ازداد هذا التماسك قوة ومقدرة على البقاء ، كرد فعل ايجابى لغياب الدولة والحضارة ، وان كان ذلك لا يستمر الى النهاية بحكم تكوين الاسلام نفسه حيث ترتبط وتتداخل دوائر الانسان والدولة والحضارة .. ان ما ذكرناه قبل قليل عبر عن نفسه ، فى العصور الاسلامية التالية ، بظهور عدد من الحركات الاسلامية ، صوفية وسياسية ، سعت الى تعزيز التماسك الفردى والجماعى بوجه التشتت السياسى والحضارى ، وهو أمر لا نجد له مثيلا فى التجارب الوضعية ، فيما حققه من نتائج ..

ان الدول والحضارات الوضعية كثيرا ما تعانى السقوط من الداخل ، فى أعقاب تدهور يصيب الانسان فى ذاته ، والمجتمع فى علاقاته « يمكن الرجوع فى هذا المجال الى كتاب (اللامنتمى) لكولن ولسون ، لدراسة هذه الظاهرة » . وهذا التدهور كثيرا ما يقود الاغلبيات الساحقة الى السلبية والدمار ، ويقود القلة الفذة إلى الانشقاق والتمرد .. والظاهرتان معا تهددان بالسقوط السياسى والحضارى .. أما فى الاسلام ، فصحيح أن الانسان — كما يؤكد الاسلام نفسه — هو محور قيام الدول والحضارات ، أو تدهورها وسقوطها .. الا أن تاريخنا يعلمنا حقيقة اخرى وهى أن الكثير من تجاربنا التاريخية سقطت فى أعقاب ضربة خارجية ، بدوية خشنة ، أو بربرية قاسية .. وهذه الضربات كثيرا ما كانت تؤدى الى مزيد من التماسك الفردى والجماعى « كما حدث للمجتمع الاسلامى فى عصر الغزو الصليبى » الا أن ضربات كهذه كانت تعمل افسادا وتدميرا على نطاق الدولة والحضارة ، سيما فى تلك الفترات التى لم تتكافأ فيها القوى العسكرية وقدرات التسليح .. وهكذا كانت الغزوات الخارجية تخلف وراءها دولا منهارة وحضارات تلفظ انفاسها .. الا أنها لم تخلف

www.noormags.ir

الا فى القليل انسانا مسلما ممزقا ، ولا مجتمعا اسلاميا متدهورا .. على العكس كانت تخلق (المجاهد) وجماعات (الفتوة) ذات الطابع الانسانى ، والسلوك الاجتماعى العالى المستمد من قيم الاسلام واخلاقياته .

ولكن هل ان بقاء الانسان المسلم والمجتمع المسلم بدون دولة او حضارة ، يمكن ان يظل طويلا .. ؟ ابدا .. فهما سرعان ما يتعرضان لعوامل التحلل التى سممت الاجواء (الخارجية) ، ورغم طول فترة مقاومتهما الا ان الجراثيم لا بد وان تنقل العدوى اليهما ، فيتجهان صوب التحلل والدمار . ولذا كان هناك ارتباط متين — فى الاسلام — بين الدولة والحضارة من جهة ، وبين الانسان والمجتمع من جهة اخرى ..

ولن يتم التقدم والتوحد والتماسك الا بوجود هذه الاقطاب الاربع ، ابتداء من الانسان صانع الحضارة ، فالمجتمع مشكل قيم الحضارة ومنفذها ، فالدولة حارسة الكيان الحضارى ، فالحضارة نفسها التى لن تكسب استقلالها وحيويتها وامتدادها الخلاق الا بتوفر الانسان الفعال (المحسن) والمجتمع الحركى (المجاهد) والدولة القوية (الراشدة) ..

ونصل الى الميزة الاخيرة ، وهى اكثر الفروق اهمية .. ذلك أن المبادىء الوضعية (العلمانية) لا تؤكد على (دور الانسان) ولا على « عملية التغيير الباطنى » أو (الجهاد الاكبر) بتعبير الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى طريقها الى اقامة الدولة والحضارة ، وفى مرحلة قيامهما .. انها تؤكد على الخارج أو (المحيط) فحسب ، على (الطبيعة) او (العلاقات المادية) أو (المجتمع) ، على عملية التغيير الخارجى فحسب ، وهذا يعرضها بلا شك الى الكثير من الانحرافات والتخبط والتأخر فى الوصول الى الاهداف .. وسرعة النكول عنها ..

أما الاسلام فانه يقرر « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ومن ثم يجىء التغيير الخارجى ، واقامة المؤسسات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية .. قائما على اساس عميق من (تغيير) و (بناء) مسبقين يشملان كل طاقات الانسان وقدراته وتصوره وسلوكه .. وهذا ما تفسره لنا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما بدأ بالانسان أولا (المرحلة المكية) ثم انتقل (بحركة الهجرة) صوب اقامة الدولة والحضارة (المرحلة المدنية) .. ولن تستقيم اية حركة فى التاريخ الا بأن تقتفى خطى خاتم الانبياء عليه السلام ، وتبدأ بالانسان !!

www.noormags.ir